

## قضية للمناقشة:

من معارك «دون كيشوت» الفكرية:

# غزو ثقافي... أم تفاعل مع الآخرين.. أو التخلف الحضاري؟!

وحيث ننظر الى الحضارة الإسلامية في عصور نهضتها نجدها وقد تزودت بفضل ما أنتج الإغريق والفرس والهنود من علوم، كما نقلت الى اللغة العربية المعارف الشرقية، مصرية أو سريانية أو نبطية، كانت المخطوطات تنقل الى دار الخلافة من جميع الاقصاء فيقبل عليها الباحثون بالفرحة والنرس، وما الحضارة الحديثة الا امتداد لكل ذلك، لكنها «عقدة النقص» تجاه الغرب التي تجعل البعض يقف أمامه كالطفل الساذج الخائف.

والصراخ في وجه الغزو الثقافي هو اعتراف ضمني باننا اضعف من الغازي، واننا نخشى أن تغزونا ثقافته الأقوى، ولكننا لاندرى كيف نخرج من هذا الضعف ان لم نستوعب كل المعارف الحديثة ونلتفوق على من أنتجها!!

وعقدة النقص لن تزول إلا بزوال ضعفنا، فالملطوب مولع بانباع الغالب، قالها ابن خلدون من قرون ومارنا نلمسها الى يومنا هذا، ففرنسا التي كانت تعاني من الوجود الأمريكي استطاعت أن تتخلص من القوات الأمريكية بعد أن اتمكت قبيلتها الذرية، لكن ذلك لم يمنع الفيلم الأمريكي والروك اندرول من غزو قلوب الشباب الفرنسي، لكن بعد عقود من التقدم ونسيان الهزيمة تحولت عقدة النقص لديهم الى منافسة شريفة، فربنا الثقافة واللغة الفرنسية تفرد بمنازاتها، وبعض الأفلام الجيدة تحقق نجاحا في الصالات الأمريكية، واصبحت فرنسا تمتلك أسرع طائرة وأسرع قطار، وصناعة الطائرات الفرنسية تنافس مثيلاتها الأمريكية وبعض الشركات الفرنسية تشتري منافساتها الأمريكية... وهكذا تصنع الحضارة.

ميلاد حلمي  
كاتب مصري - باريس

فقدت النقص التي تحكم في نفوسنا منذ الحملة الفرنسية ونازمت بهزائمنا أمام اسرائيل تستطيع أن تحولها الى شعور بالثقة في النفس بل وبلاستعلاء، نفس الشعور الذي كان يشعر به العرب بعد القائهم «بالفرجة» في البحر وأسر ملوكهم.

وهذا التحول لن يتم ايدا باغلاق النوافذ وكنم الانفاس، بل لن يتم الا باستيعابنا للعلوم الحديثة والوقوف على الثقافات المختلفة وهضم كل المعارف الإنسانية ونقدنا وتمحيصها ثم تعدي كل ذلك الى مساهمة معطاءة للحضارة.

ففي يوم من الأيام كانت الحضارة الغازية هي الحضارة المصرية، ثم الحضارة العربية، وهذا اليوم سيعود حين يكون هناك ابن خلدون آخر، وحين يكون بيننا ابن النفيس أو جابر بن حيان أو ابن الهيثم، حين تنتج المجتمعات العربية عبقريات مثل البيروني والخوارزمي أو ابن رشد.

أما في الزمن الحاضر، حيث نسجل براءات الاختراع العربية، في جامعات ومعاهد الغرب حيث تتولى البيروقراطية «تطفيش» العقول والكفاءات العربية ودفعها للهجرة (الى الغرب) حيث يتشرذم المفكرون والكتاب العرب في العواصم الأوروبية، فلما علينا ان نجرع عقدة النقص والبكاء على الأطلال.

فالسؤال اذن... باهي مشاركتنا في صنع الحضارة، المشكلة اذن... هي عطاؤنا الحضاري، فحين يحصى الكاتب الفرنسي «جي سورميان» أكبر المفكرين والعلماء المعاصرين، لاتجد بينهم اسما عربيا واحدا، وإن كان المسلم الوحيد هو عالم الفيزياء الباكستاني عبيد سلام.

والواقع... ان ماتحتاجة فعلا ليس الانغلاق، بل جهد متزايد من الانفتاح حتى نهضم ما أنتجته الحضارات الحديثة.

إن ما نحتاجه اليوم، ليس دراسة المجتمعات الغربية لمعرفة سبب تقدمها، بل دراسة حضارات ومجتمعات دول جوب شرق اسيا التي حققت - في فترة قصيرة - طفرة حضارية لا سابق لها في تاريخ البشرية واصبحت تنافس بل تهدد الغرب نفسه، كل ذلك رغم خروجها من قرون عانت فيها - مثلاً - من ويلات الاستعمار الذي اصبح لاسف الشماعة التي تعلق عليها الى اليوم... خبيثنا.

اليوم... ونحن نقارب على القرن الحادي والعشرين، اليوم وقد لاحت في الأفق بوادر حل للزامة الفلسطينية، اليوم قد انتهى عصر الاستعمار وبطلت الحروب - عدا الحروب التي تهدف لتدمير أدوات الحضارة التي يبيعها الغرب للعرب - لاسترداد اموال البترول - اليوم... أي شيطان قادر على اعاقه حركة النهضة التي بدانها منذ عهد محمد علي؟

وهل فكر أحد منكم في طريقة افضل لاقتائنا مرة أخرى في ظلام العصور الوسطى؟

حقا... انه لشيرير هذا الغرب.

من الأشياء المنطقية - التي لايرفضها أي عاقل - أن تهتم القضايا المطروحة على الساحة الفكرية - في مجتمع ما - بمعالجة التحديات الحضارية التي تواجه هذا المجتمع، بل وتنصدي لمشاكله. اما ان تمتلىء صفحات الجرائد والدوريات بمعارك وقضايا تمتد الاف السنوات عن المشاكل والتحديات الحقيقية فيها، فيجئ لأي عاقل أن يسأل: هل هو «فخ» لإبعاد هذا المجتمع عن واقعه؟

فمن غير المعقول أن ينخرط كتابنا وأصحاب المساحات في جرائدنا القومية في مناقشات حامية حول نفس القضايا التي كانت مطروحة أمام العقل الغربي في بداية القرن. كان الكتابة اصبحت عندما مثل التعليم، تكرار وحفظ ونصوص مقررة. كأننا ننور في حلقة مفرغة لا نستطيع الخروج منها، أو بالأحرى... لا نريد.

ومن الموضوعات التي تثير حمية الكثيرين مثلاً... قضية «الغزو الثقافي» الذي نتعرض له من جانب الغرب وضرورة التنبيه له والتصدي لشروعه.

فمن المضحكات حقاً أن يصرخ البعض في نهاية القرن العشرين - عصر التلفزيون والأقمار الصناعية - بأن تغلق الباب والشباك حتى لا تتعرض لغزو الثقافة الغربية (الشريفة) كيف حقاً تغلق الباب وملايين المصريين يعملون خارج الحصن المنيع الذي يربد حمايته، كيف تغلق الشباك والصورة والكلمة تدوران حول الكرة الأرضية بأسرع من الضوء؟

في فرنسا تعالت نفس الصرخات محدرة من غزو الثقافة الأمريكية في الخمسينات والستينات، بالطبع... كان الفرنسي يشعر بعقدة النقص تجاه الأمريكي الذي حبر بلاده من المحتل النازي، ودارت في البرلمان معارك حول السماح لمشروب «الكوكاكولا» بدخول فرنسا، وطالب أعضاء البرلمان بتحليل المشروب حتى لا يسهم الشعب الفرنسي، كما دارت معركة أخرى بين الثلاثة الكهربائية الأمريكية و «ملبية» حفظ الطعام الفرنسية، ونعلات شعاعات «الكوكاكولا» ستقضى على النبيذ الفرنسي و «اللاجحة ستقتل روح المطبخ الفرنسي».

ونحن نضحك اليوم من هذه السذاجة نضحك كما نضحك من الاصوات المطالبة بالانغلاق - لحصانة مجتمعنا - ثم... تكف عن الضحك وبندا في الكاء عندما نرى محاكم التفتيش تطل بوجهها من عصور الظلام فتصدر تهم الكفر والإلحاد، تنشق صدر كل قصيدة ورواية، تنبش في قلب كل كتاب، و... ننتطق الرصاصات لنقتل كتابنا.

وأغلق المجتمع أمام كل وافد من الخارج، وتخويف المعارض في الداخل ماهي إلا أرهاصات لأقامة مجتمع الخوف. والخوف - كما أوضح «مونتسكيو» هو الصفة السائدة في مجتمع الاستبداد.

إن... فالتصدي للغزو الثقافي الأجنبي يسلم ضمناً بأنه اقام من الوطن عربة خاصة به، وأنه حول المواطن الى «رعية» ومن الشعب إلى قطع من الغنم، ثم اقام من شخصه رقيباً على هذا القطيع.

وإذا قبلنا ان يكون المواطن قاصراً، والوطن عربة، وأن هذا المتصدي للغزو الثقافي الأجنبي لديه في جعبته من المعارف مايكفي لصمد ثقافات الآخر، ولديه مايكفي لاتباع جوع اهله واخراجهم من الجهالة التي يعيشون فيها... اذنا قبلنا كل هذه الفروض... فهل من الممكن التصدي لأي غزو ثقافي؟

سرعان ما تبين التاريخ بأن الصراخ في وجه الغزو الثقافي ماهو إلا حرث في البحار، فالثقافة كالرياح تأتي دائماً وايدا لاختلال المناطخ المنخفضة الضغط فلم يعرف التاريخ ثقافة أو حضارة لم تثار برفاد اجنبية. وجملة المعارف الانسانية ما هي الا الثقافات المختلفة وقد تبادلت التأثير بطرق متعددة منها السلمية ومنها المسلح، ولم تعرف على سطح الكرة الأرضية ثقافة نشأت من فراغ، أو ثقافة تخلو من عناصر غريبة دخلتها عنوة أو طواعية.

فالبحور الحضارية لم يتوقف منذ اكتشاف الزراعة وبداية الإنسان مسيرته نحو التقدم، بل ان الحضارات التي سادت العالم هي الحضارات التي تمكنت من امتصاص معارف الحضارات الأخرى والتفوق عليها.

فالحضارة الإغريقية كانت نتاج الحوار بين اليونان ومصر، وازدهرت لانها تميزت بحرية الحركة والانتقال. ومصر نفسها حين تمكنت من اقامة حضارة فرعونية عظيمة لم تكن ابدا بعيدة عن كل التيارات الفكرية والاجتماعية التي سادت حوض البحر المتوسط، والحضارة الهيلينية ماهي الا تزواج المعارف الإغريقية والمصرية واليهودية متميزة بالمعارف الفارسية والشرقية.